التقليد

التقليد ميل فطري في الانسان يدفع به الى محاكاة من اعتقد فيه التفوق عليه فيجتهد في معظم شؤونه واحواله على حد قول القائل

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاحُ

على ان هذا التقليد لا يقف عند حد الانتفاع بالمتابعة ولا الاعتقاد بتفوق المقلَّد فقد يندفع الانسان في غالب الاحايين بميله الفطري الى اقتفاء الاشياء وتحديها من غير تحكيم الروية ولا بعامل الاستحسان وانما بدافع طبيعي فيه

وترى الاطفال تتبع حركات الابوين والقائمين على تربيتهم وتقلدهم في اشياء كثيرة تقع من اهلهم موقع الاستغراب فينسبون صدورها الى قوى كبيرة في مداركهم ويتخيلون خيراً وما هي في شيء مما يزعمون وانما تلك اعمال بعثها التقليد الفطري ولا يد للتعقل والارادة في اعمال الفطر وكيف تصدر عن شيء لم يتكوّن بعد ولا حان وقت ظهوره على ان التقليد الفطري هو الاستاذ الاكبر للطفل الذي يلقنه التكلم ويعلّمه المشي وكثيرات من الامهات ذات الحنان الشديد تقضي عليهن قوة العواطف في ملازمة الطفل والاكثار من الحركات والتكلم معه لاسيما اذا كان وحيداً فلا يطول الامر به حتى يقوى على التكلم كما هو مشاهدٌ من حالات الايكار الذين يولدون وعاطفة حنان الابوين في ابان اشتدادها

وليس التقليد بأستاذ الكلام للطفل فقط وانما هو استاذ الانسان في وضع الكثير من الفاظ اللغة فقد حلّل اللغويون من علماء اوربا الفاظ اللغات القديمة الاصلية فوجدوها على قسمين قسم منها يعرف بالمحاكاة Onomatopes وهي الكلمات التي يحاكي التلفظ بها صوت الشيء الذي تعنيه والقسم الثاني التمثيلي Mimique وهو تمثيل الشيء باشارة تنبه الفكر الى المقصود من الافكار والعواطف . اعتبر ذلك بما تراهُ في الكثير من كلمات لغتنا العربية اذ انها ولا بدع من اللغات السامية القديمة وهي ملأى بالالفاظ الموضوعة لمحاكاة صوت الشيء الذي تعنيه من مثل اذا تكلم الانسان وكان في خياشيمه خنة يقال خنخن واذا اخذ في الضحك الشديد يقال قهقه ولصوته قهقهة واذا تحاكت الاشياء اليابسة واصاتت يقال لصوتها خشخشة واذا خرج صوت من الانسان لتوجع او تم يقال ساح واذا صات من حلقه وانقه يقال شخر ويقال لصوت الماء الجاري خرير ويقال لصوته في الجرة او الكوز بشبقة ولصوته اذا استخرج من الاناء قرقرة واذا سال قليلاً قليلاً قيل بضّ بضيضاً ويقال لصوت

البئر خوار ولسترموا ولصوت النائم الغطيط والمواء والزعرة للذيب والنقنقة للدجاجة والنقيق للضفدع ونجد من تلك الكلمات الشيء الكثير مدوناً في كتب اللغة ومعاجمها

كان التقليد عماد الانسان الاول في وضع اللغة وفي الكثير من حاجاته الاولية التي قلد بها الحيوان من مثل انهُ اخذ عن الشيمبانزي كسر الجوز بالحجر ورأى الطير يبني عشاشهُ فتحداهُ باصطناع الاكواخ من غصون الاشجار وشهد الحيوان يأوي الكهوف التجاء اليها من صبارة البرد فاقتفاهُ في حفر المغاور او حفرها على شواطىء الانهار والاودية وتعلم النسج من العنكبوت والسباحة من الحيوانات التي تعوم في مياه البحيرات والجداول الى غير ذلك من الصنائع التي كان التقليد سبباً لوجودها وليس دور بالغاية التي ترقى اليها الصنائع على ما يظن البعض

وليس التقليد من خصائص دور الطفولية وطور البداوة في الامم بل يتناول جميع ادوار الحياة وكل اطوار رقي الشعوب بين قلة فيها وكثرة وبين ابتغاء النفع وبين الرغبة في المتابعة غير مشروط فيها النفع والضر الا انهُ في اطوار الرقي وادوار الرجولية يترقى المقلد لاتباع المتفوق عليهِ معنًى وحسًّا. قال العلامة ابن خلدون في ذلك ما يأتي ان النفس ابدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليهِ اما لنظرها بالكمال بما وقر عندها من تعظيمهِ او لما تغالط بهِ من ان انقيادها ليس لغلب طبيعي انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادًا فانحملت جميع مذاهب الغالب وتشبهت بهِ اه

وحقيقة هذا القول ظاهرة لمن اطلع على سير الشعوب ووقف على ما فعل التقليد في الاخلاق والعادات والافكار وسائر الشؤون الانسانية وانهُ يتسلل الى الامم فيقلب احوالها ويكيف طباعها ولا يقف في سبيلهِ ما يكون من البغضاء والنفور بين الطوائف وبين امة واخرى ويشترط في حصول التقليد الامتزاج والاختلاط سواء كان موصولاً بالحب او الكره والعبرة فيهِ للقرب بحيث تأخذ العين ما يقرها والعاطفة ما يثيرها

على ان الى جانب الميل التقليدي في الانسان ميلاً اخر يعاكسهُ وهو الميل الى الاستقلال. وعلى قدر قوة هذه العاطفة في الامة او ضعفها يتوقف اعتلاؤها في سلم الحضارة والعمران ولسوء الحظ ان هذه العاطفة فينا ضعيفة جدًّا ان لم نقل ضعيفة منا وان التقليد تأصل في عروقنا وصار من طبيعة الشرقي والخاصة المميزة لنوعهِ

واذا اراد المطالع الوقوف على نتائج التقليد ومؤثراتهِ في الاعمال والاخلاق والعادات وسائر الشؤون فليقابل بين تلميذين الواحد منهما اوربي من اهل الاستقلال والثاني شرقي

من ذوي التقليد يراها اذا تعلّم احدهم حرفة من الحرف كالنجارة والحدادة والبناء وغيرها او تلقنا العلم في احدى المدارس فوق الشرقي في الاخذ والتعلم وقال على الغربي وهذا مشاهد في ابناء بلادنا الذين يتعلمون العلم في مدارس اوربا فان الواحد منهم على انهُ غريب النجبة والبلاد يسبق رفاقهُ من الاوربيين ويحوز التبريز عليهم لانهُ متى خرج الانسان من تعلم الحرف او تلقن العلم وبعبارة اخرى متى خرجا من دائرة التقليد الى عالم العمل والاستنباط وقف الشرقي عند حد التلقين وسار الغربي وخُلق الاستقلال يدفعهُ الى الاختراع والاستزادة على ما تعلمهُ في صنعتهِ او ما تلقنهُ من علومهِ

ويظهر الفرق جليًّا بين الاستقلال والتقليد في ادارة الاعمال على انواعها من قضاء وتجارة وزراعة وعلم وغير ذلك. ترى الشرقي اذا اشتغل في احدى دوائر تلك الاعمال وكان العمل معينًا محدودًا من كتابة او محاسبة او شيء آخر ليس من نوع الادارة اتم عملهُ بكل سرعة واتقان وتعذر على الغربي مجاراتهُ في ذلك او التفوق عليهِ وان كان العمل من نوع الادارة التي تطلب الاستقلال في التفكير وتحتاج في الاحايين الى استنباط طرق او ايجاد وسائل لنجاح العمل كان السابق في هذه الحلبة الاوربي يؤيد ذلك غير واحد من المشاريع الوطنية التي تولّى ادارتها رجال من الشرق فانها لم تقوَ على السير طويلاً واندرجت في خبر كان. واليك مثالاً اخر على استرسال الشرقي للتقليد الشعر العربي فان العرب قالوا الشعر زمن الجاهلية وبرعوا فيهِ كثيرًا ولا غروَ فالعرب من الشعوب السامية التي استغرقت في عالم الخيال لاسيما وانها في الجاهلية وزمن الفتح اوائل الاسلام كان لها من الحرية والاستقلال ما اكسب شعرها قوة البلاغة واختراع المعاني والتفرد في ابتكار اساليبهِ مما هو ظاهر في اشعار الجاهلية والمخضرمين والمولدين. ثم توالت الايام وكرت الدهور على هؤلاء الشعراء الثابتين وخلفهم الوقت مؤلفة ممن تحيل صناعة الشعر فلم يزيدهم على كثرتهم من خرج عن دائرة التقليد ولا من خطّ لنفسهِ منهاجًا جديدًا بل جمّاعهم استفتح قصائد المدح بالنزل او التشبيب تتغنى بذكر الاباطح وبرقة نجد وارام وجرة ووصف المحبوب بالمقلة النجلاء والشامة الحضراء والوجنة الحمراء وناداها بليلى وسعد وسلمى وهند وزينب وتخلص الى وصف ممدوحهِ بالاسد الزئبال والبحر الخضم والسحاب الجوهر الفرد وقس على هذا الباب كل ابواب القريض من رثاء وهجو وفخر وتهنئة وعتاب وزهد الى غير ذلك مما وضعهُ الاولون ولم يتعدهُ المتأخرون حتى ولا في الالفاظ المفردة

ويتفاخر اليوم اهل القطرين المصري والشامي بانهما في دور النهضة وما اخلق هذا

الدور بالتسمية بدور التقليد الجديد ذلك ان الحوادث السياسية في النصف الاخير من القرن الماضي دفعت بجماعة من الاوربيين والاميركيين الى استيطان القطرين والاقامة بينا فاستهوانا جمال حضارتهم وتفوقهم بالعلم والمال . والنفس مفطورة على الاقتداء بمن تعتقد فيهم الكمال والتشبه بهم ولذلك حبت هم اهل القطرين هبة قوية لتحدي الاوربيين وتتبع خطواتهم فلم يمض علينا الزمن الطويل حتى صار يعسر على اعاظم النقدة التمييز بين البعض منا وبينهم في الملبس والمسكن والمطعم وحتى ان نفراً منا قدموهم في الرطانة وركاكة التعبير

وحبذا لو دفعنا التقليد الى مجاراتهم في الشؤون النافعة من حيث الاخلاق والصدق والاستقلال في الفكر وحرية الضمير والقول والاجتهاد والاقتصاد ونكران الذات واشباه ذلك من الفضائل التي تخرج بنا من دور التقليد الاعمى الى دور الاستقلال والاختراع ي . ي

الباب الثاني عشر

الخزانات وموسم القطن

وهو خطبة للسر وليم ولككس تلاها في الجمعية الجغرافية الخديوية في ٢١ دسمبر

اني مهتم باعداد طبعة ثالثة من كتابي " الري المصري " ولذلك رأيت ان اقضي الشتاء الماضي في البحث عن مياه النيل ومستقبل زراعة القطن لكي اضيف ذلك الى كتابي. وكنت ارجو ان اعود بعينات من التربة والقطن من كل جهات وادي النيل وقد جمعت ما جمعت منها ولكنني اضطررت اخيراً ان اتركها راضياً من الغنيمة بالاياب (ثم ذكر المرض الذي اصابهُ في اعالي السودان وشكر للذين اعتنوا بعلاجهِ وتمريضهِ وعاد الى موضوعهِ فقال)

ان من يصعد من سواحل البحر المتوسط الى البحيرات الاستوائية يرتج في ذهنهِ ان نجاح البلاد وانتشار زراعة القطن فيها مرتبطان احدهما بالآخر كأنهما شيء واحد وان وادي النيل من اصلح البلدان لزرع القطن

فالوجه البحري من العاصمة الى بحر الروم ومن بني سويف الى العاصمة يزرع فيهِ القطن